الجزء الاول السنة السادسة ١٥ اكتوبر ١٩٠٣

الضياء

مجلة عِلميّة أَدبيّة صِحيّة صِناعيّة

وحدة النوع البشري

اجمع المتقدمون من الحكماء على ان الناس كلهم ذُرّيةٌ واحدة لأبٍ واحد وبهِ ورد النصّ في جميع كتب الاديان التي بين ايدينا والتي نُقل حديثها الينا وان اختلفت في حكاية الخلق والمكان الذي جُعِل فيهِ الانسان الاول مما لا اثر لهُ في نفس الامر

الآن غرضنا في هذا المقام الالمام بهذا البحث من الوجه العلمي مما خاض فيهِ فلاسفة المتأخرين بعد استقراء ادلّتهِ من مباحث علماء التشريح والكيمياء ومنافع الاعضاء وعلماء الرُفات وطبقات الارض وغيرهم. وقد افترقوا على مذهبين متناقضين احدهما القول بتعدد انواع الانسان بناء على ما يُرَى بين اجيالهِ المختلفة من تباين الالوان والملامح وتفاوت القوى العقلية وغير ذلك ذهاباً الى ان تلك المميزات فصولٌ نوعية على حدّ الفصول الفارقة بين سائر الانواع من الحيوان والنبات . والآخر القول بوحدة النوع

بناءً على ان الفوارق المذكورة وامثالها اعراضٌ طارئة بسبب البيئة لا تقوّم فصلاً ولا تقضي بان يكون كل واحد من تلك الاجيال نوعاً مستقلاً ولكن ما يعدّهُ اصحاب المذهب الاول انواعاً ليس الا سلائل متفرعة عن النوع الواحد . ولهم في جميع ذلك منازعاتٌ ومناقضاتٌ طويلة يقتضي سردها مجلداً برأسهِ ولكننا سنقتصر منها على قدر ما يحتملهُ المقام نعتمد فيهِ على امثل الاقوال مع الاكتفاء باشهر تلك المميزات واوضحها تبايناً والله وليّ السداد

وبيّنٌ ان المذهب الاول لا يحتاج من الادلّة الى الزيادة على ما ذُكر من المميّزات الظاهرة كما لا يحتاج التمييز بين نوعٍ وآخر من انواع الحيوان والنبات وبخلافهِ المذهب الثاني لان التفاوت بين سلالةٍ واخرى قد يبلغ الى حدّ التباين التام بحيث تصبح السلائل من الانسان بمنزلة السلائل من انواع الحيوان والنبات لا يمكن ردّ كلٍّ منها الى نوعهِ الا بعد اطالة البحث والنظر وتتبُّع اسباب ما بينها من الاختلاف

ولا يخفى ان الاختلاف المذكور لا ينحصر في عَرَضٍ من الاعراض كاللون وطول القامة وشكل الملامح وما اشبه ذلك فانهُ ليس عضوٌ من اعضاء الحيوان والنبات الا وهو قابلٌ لان ينمو او يضمر او يتغير شكلهُ او لونهُ الى احوالٍ لا تُحصَى فيخالف سائر النوع في الظاهر ومن هنا تكثر ضروب السلائل وتتعدد بتعدد وجوه الاختلاف بحيث ان كل واحدٍ منها انتقل الى الذُرّية وثبت فيها نشأت عنهُ سُلالةٌ خاصّة وقد ينشأ عن السلالة سلالةٌ اخرى حتى تتعدد السلائل من السلالة الواحدة الى ما يطول استقرآؤهُ

ولكن هذه السلائل مهما كثرت وتباينت في الظاهر فانها تجتمع في مقوّمات النوع ولا تخرج عنهُ

وللوصول الى تحقيق هذا البحث نرجع في اعتبار هذه الاختلافات في الانسان الى اعتبار مثلها في انواع الحيوان والنبات مما كان شغلاً شاغلاً لعلمآء الطبائع منذ نحو قرنين من الزمن بحيث لم يدعوا جليلاً ولا دقيقاً الا فحصوهُ وشرحوهُ شرحاً مدققاً الى آخر ما تسعهُ الذرائع العلمية

واسباب الاختلاف في النوع الواحد كثيرة منها تبدُّل الاقاليم ونوع المعيشة والغذآء والبيئة والعادات وغير ذلك . وهذا الاختلاف كما يكون في الاحوال الطبيعية قد يتناول الاعضآء التشريحية ايضاً حجماً وشكلاً وربما تناول القُوَى المدركة كما يشاهد كل ذلك في اصناف الكلاب وقد جُمع منها في المعرض الذي أُقيم في باريز سنة ١٨٨٣ سبعة وسبعون صنفاً من الاصناف المتمايزة كلها من اوربا وعلى الخصوص من فرنسا ولم يكن شيءٌ منها من آسيا وافريقيا واميركا . وقد عدّ داروين من اصناف الحمام مئة وخمسين صنفاً كل واحدٍ منها يمتاز بنفسهِ وذكر انهُ لم يُحِط بجميع الاصناف ويقدّر ان اصناف الكلاب تبلغ هذا العدد او تزيد . وقس على ذلك في النبات كالعنب فانهُ يُعدّ منهُ في فرنسا وحدها نحو ثلاث مئة صنف وكذلك بعض انواع الزهر كالورد واصنافهُ تبلغ فيما ذكروا ما يزيد على الف ومئتي صنف ولا خلاف في ان كل طائفة من هذه الاصناف تُعدّ نوعاً واحداً وانما يختلف بعضها عن بعض لسببٍ من الاسباب المذكورة . فاذا ثبت ان الحيوان والنبات يتبدل شكل نوعهِ ولا يكون ذلك قاضياً بخروج الصنف عن حدّ النوع فأَحرِ

بالانسان ان لا يخرج عن قاعدة غيرهِ من تلك الانواع وان يرجع باسرهِ الى اصلٍ واحد

على ان من انواع النبات والحيوان ما يتعدى الاختلاف فيهِ الى ما وراء ذلك مما لا تجد مثلهُ في الانسان وذلك كالورد فانهُ من المشهور انهُ يزهر مرة في السنة في زمن الربيع ولكن بعض اصنافهِ يزهر مرتين او ثلاثاً في السنة بل منهُ صنفٌ يُعرَف عند بعضهم بالورد الطرابلسي يزهر في كل شهر ويسمى لذلك بالورد الشهري . وهو انما يزهر كذلك بان يُعطَّش بين الحمل والحمل حتى يتساقط ورقهُ ثم يُسقى فلا يلبث ان يعود الى نضرتهِ ويخرج اوراقهُ وبراعمهُ . ومثل ذلك في الحيوان الغنم والخنزير البرّي فان الغنم تلد مرةً في السنة وتضع سخلةً واحدة وهو المشهور فيها ولكن جاء في كتب بعض الثقات ان صنفا منها بالصين يلد مرتين في السنة ويضع في كل مرة سخلتين . وكذلك انثى الخنزير البري لا تحمل الا مرة في السنة وتضع ستة اوثمانية خنانيص ولكنها اذا دجنت وضعت مرتين في السنة وفي كل مرة تضع عشرة الى خمسة عشر صغيراً

ولا يخفى ان اعظم اختلافٍ بين افراد الانسان يوهم انهُ متعدد الانواع هو امر اللون اذ يبعد على البديهة ان تعتقد ان الزنجي والابيض هما أَخوان من ابٍ واحد . غير أنّا اذا رجعنا الى بعض انواع الحيوان وجدنا بين افرادها من اختلاف اللون ما لا يقلّ عما بين الانسان والانسان وذلك كما يُرى في الخيل والكلاب والحمام وغيرها ولا تجد مع ذلك من يذهب الى ان اختلاف اللون فيها يُعتبَر فصلاً يتميز بهِ بعض افراد النوع حتى يكون

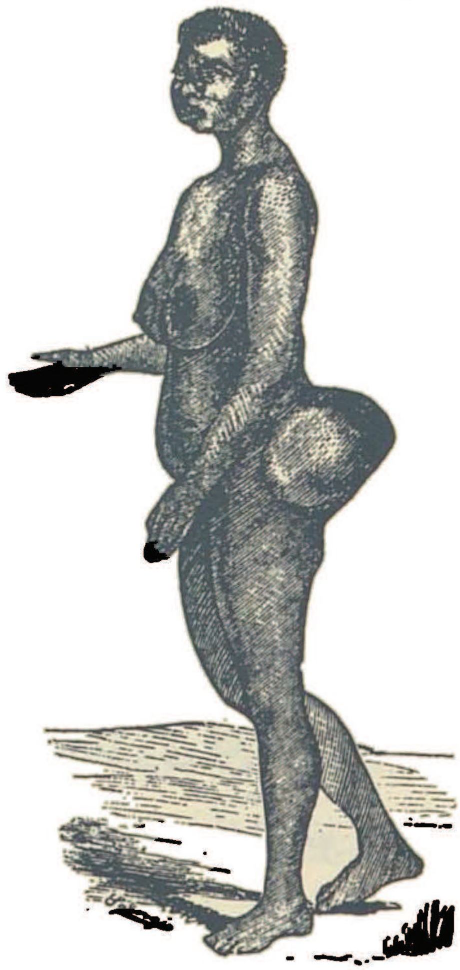
نوعاً قائماً بنفسهِ

على انهُ من المعلوم اليوم ان جلد الزنجيّ لا يختلف في التركيب عن جلد الابيض فان كليهما يشتملان على الطبقات الجلدية بعينها من الأَدَمة والغشآء المخاطيّ والبَشَرة وكلها ذات بنآء واحد خلا انها في الزنجيّ اثخن مما هي في الابيض . وفي كلتا السلالتين مقرّ المادّة الملوّنة في الغشآء المخاطي المتوسط بين الطبقتين المذكورتين وهو مؤلفٌ من خلايا هي في الابيض تبنيّة اللون وفي الاسمر صفرآء مظلمة وفي الزنجيّ سمرآء الى السواد وهي في الكل واحدة وانما يختلف مُفرَزها الملوّن بسبب ما يتسلط عليها من العوامل الخارجية

وذلك ان كل احدٍ يعلم ان النور يلوّن الجلد بالسواد كما يتحقق من المقابلة بين المكشوف من الجسم كالوجه والكفين والمستور كالذراعين والصدر . واذا تعرض احدنا للشمس مدةً طويلة اثّرت فيهِ سواداً ظاهراً وهذا السواد ناشئٌ عن نفس المادّة التي تسوّد جلد الزنجي الا انهُ في الزنجي اشدّ واظهر بسبب حرارة الاقليم ثم انهُ لاستمرار سببهِ رسخ في بنيتهِ وانتقل بالارث الى اعقابهِ . ومثل ذلك ما يُرى في الشعر من اختلاف اللون بين ان يكون اسود او اشقر او بينهما وهو مسبّبٌ عن مثل ما تقدم وكذا ما يرى فيهِ من اختلاف القوام بين ان يكون دقيقاً ليناً او غليظاً قاسياً او سَبطاً او جَعداً وهو في جميع ذلك لا يخرج عن حدّ الشعر . ولكن اذا تفقدنا بعض اصناف الحيوان وجدنا ان الصوف احياناً ينقلب الى شعر كما في بعض اصناف الغنم الافريقي وقد ينقلب الشعر الى صوف كما يُذكر عن

الخنزير البرّي في اعالي جبال الأَندس من اميركا الجنوبية . بل ربما تعرّى بعض الحيوان من الشعر اصلاً كما يُرَى احياناً في بعض اصناف الخيل والكلاب وكما يُروَى عن بعض اصناف البقر في اميركا مع انها باسرها مجلوبة في الاصل من اوربا

ومما يجدر ذكرهُ هنا ماطالما لهج بهِ اصحاب مذهب التعدد وجزموا بانهُ لا يكون الا من الخصائص النوعية وهو ما يُرى في نساء البوشيمان من قبائل الهوتنتوت بجنوبي افريقيا فانهُ ينشأُ لهنّ عند منُقطَع الصُلب غُدّة شحمية قد تبلغ حجماً فاحشاً حتى يُذكر ان المرأة الهوتنتية التي جيء بها الى باريز في اوائل القرن الماضي وهي التي اشتهرت عندهم باسم ڤينوس (الزُهرَة) كان لها ولدان يتبعانها فكانا يتسلقان عليها ويجلسان على تلك الغدّة . على ان بعض السيّاح ذكر انهُ رأى مثل هذه الغدّة في قبائل اخر من الزنج من سكان تلك النواحي بل اثبت ليڤِنْجِستُون احد مشاهير السُيّاح المرسلين في اواسط القرن الماضي ان نساء البوير وهم هولنديّو الاصل بلا مشاحّة قد بدأت تنشأُ لهنَّ هذه الغدد في الموضع نفسهِ وهو مما يقطع بانها من الخصائص السُلاليّة دون النوعية



(ڤينوس)

على ان هذا غير خاصٍ بتلك النسوة بل هو يوجد في بعض انواع الحيوان ايضاً كالغنم فان الآسوية منها تكون ذات الية شحمية تربو على جانبي العصعص ويبلغ وزنها من ١٥ الى ٢٠ كيلغراماً . ولا يقال ان هذه الغنم نوعٌ قائمٌ بنفسهِ فقد ذكر ان حكومة روسيا نقلت بعضها من بلاد آسيا التي هي بيئتها الاصلية الى بلادٍ اخرى فزالت الالية منها في عدة اعقاب وعادت كغيرها من سائر الغنم

وهناك اختلافاتٌ أُخر لا نطيل باستقرآئها يُرى مثلها في غير الانسان مما لا ريب في كونهِ من تغييرات البيئة وكثيراً ما تكون في العجماوات اظهر مما هي في الانسان وفيما ذكرناهُ منها كفاية

(ستأتي البقية)

البحتري

بقلم حضرة الاديب الكاتب امين افندي الحداد احد صاحبي لسان العرب سابقاً ورئيس انشاء جريدة البصير بالاسكندرية

هو ثالث الشاعرين العظيمين ابي تمام الطآئي وابي الطيب المتنبي وهو الشاعر وهما الحكيمان كما قال بذلك المتنبي . ولعلهُ على صواب فيما وصف لان الرجل لا يُعتَبر في حدّ الشاعر فقط بل هو ناقل للشعر من طريقة الجاهلية الاولى الى الطريقة السهلة الممتنعة كما يبدو ذلك من جملة شعرهِ وديباجاتهِ المعروفة بسلاسل الذهب وكما يشهد بذلك لنفسهِ حيث يقول

وانا الذي اوضحتُ غير مدافَعٍ نهج القوافي وهي رسمٌ دارسُ

وهو في هذا على خلاف استاذهِ ابي تمام الذي بقي ملازماً لطريقة الجاهلية في كل شعرهِ ولذلك يبدو اكثرهُ ثقيلاً واضحةً فيهِ الكلفة والتعقيد حتى لقد يُعدّ متعمداً للاساآءة بكثرة دسّهِ للالفاظ الوحشية المهجورة وحومهِ عليها كأنها مغنمٌ عظيم . ولقد اوشك المتنبي ان يجري مجراهُ في اوائل عهدهِ بالقريض كما نبهتم على ذلك في شرحكم لديوانهِ ولكنهُ عاد فاستقلّ بعد ظلعهِ وبدا شعرهُ وهو الصريح المصفى

على ان البحتري مع كونهِ في المنزلة التي وصفهُ بها المتنبي يُعدّ دونهُ ودون ابي تمام في الشهرة وشيوع الشعر والاستشهاد بهِ ولعل السبب في ذلك انهُ افرط .في النظم حتى يصح القول بأنهُ تناول كل غرض ونظم في كل معنًى فضلاً عن انهُ كان ضيق الحيلة في تنسيق شعرهِ قليل الحرص على اظهار الفائق من معانيهِ ووضعهِ موضعاً يستقلّ فيهِ وتتناقلهُ الالسنة ولذلك تبددت محاسنهُ التي يصح التمثل بها وهي بين معايب كثيرة فلا يستطيع المتمثل او المتخير ان ينال منها شيئاً يذكر لعدم استقلال البيت بنفسهِ . ولهذا قلّ ان ترى في مختارات الشعر شيئاً من شعرهِ لعدم امكان انتقاء الحسن من بينهِ على خلاف المتنبي فانهُ على ما يظهر من جملة شعرهِ انهُ فضلاً عما كان عليهِ من غزارة المادّة وسعة التصرف وكثرة الاختراع ولا سيما في المعاني الدائرة التي يُتمثل بها كان وافر الحيلة في ان يجعل البيت او الشطر الذي يصح الاستشهاد بهِ مستقلاً بنفسهِ لفظاً ومعنًى فيسهل انتزاعهُ وحفظهُ ولهذا تجد اكثر ما يُستشهد بهِ من القول مأخوذاً من شعرهِ وهو ذوق حسن يضاف الى ذوقهِ في صوغ الشعر وجودة سردهِ

وتقديرهِ . مع ان البحتري لو كان على شيء من ذلك او كان قد تنبه اليهِ لما اعوزهُ الحذق ان يغدو كالمتنبي مشهور المحاسن مأثورها . ولعل ابا العلاء المعري يكون قد انصفهُ في اختصارهِ لديوانهِ وانتخابهِ منهُ اللائق الحسن لان شعر البحتري يوشك ان يكون ساقطاً لكثرة عدوى الرديء منهُ للجيد فضلاً عما في بعضهِ من الخطأ مما اشار ابو العلآء الى شيء منهُ في بعض رسائلهِ عنهُ . ولهذا يصح ان يوصف بما وصف بهِ بعضهم شعر شكسبير الانكليزي اذ قال عنهُ ان القارئ لشعرهِ يشبه السائر في ليلة حالكة الظلام كثيرة البروق فهو يمشي ظالعاً متعثراً حتى يتألق لديهِ البرق فيمشي عدة خطوات على هدًى ثم يعود الى عثارهِ وتعسفهِ . وهذا غريب من مثل البحتري الذي وصف محاسن الانشآء بما لم يسبقهُ اليهِ احد في الجودة ولكن الانسان مفتون بشعرهِ كافتتانهِ بولدهِ ولهذا يكثر ذهولهُ عن سيئات نفسهِ حتى لقد يراها حسنات مع ان البحتري هو الذي يقول

والشعر لمحٌ تكفي اشارتهُ ... وليس بالهذر طوّلت خُطَبُهْ

وهو الذي يقول في وصف انشآء ابن الزيات

قد تفننتَ في الكتابة حتى ... عطّل الناس فنَّ عبد الحميدِ
في نظامٍ من البلاغة ما شكّ ... مٌ أمرؤٌ انهُ نظام فريدِ
وبديعٍ كانهُ الزّهرُ الضا ... حك في رونق الربيع الجديدِ
ومعانٍ لو فصّلتها القوافي ... هجّنت شعرَ جرولٍ ولبيدِ
حزنَ مستعمل الكلام اختيارًا ... وتجنبنَ ظلمة التعقيدِ
وركبنَ اللفظَ القريب فأدركنَ ... م بهِ غاية المراد البعيدِ

فانظر الى هذا الشعر الخالص النقي الذي يصح ان يوصف بما جآء فيهِ ثم انظر الى اكثر شعر قائلهِ يبدُ لك ما قلناهُ من ذهول الانسان عن الصواب وهو على معرفةٍ بمكانهِ

على اننا لسنا الآن في بيان رديء البحتري فانهُ كثير بالقياس الى جيّدهِ ولكننا في بيان محاسنهِ الخفية بين اثنآء شعرهِ فانها مما يجمل تدوينهُ ويحسن التفكه بهِ وهو المقصود بهذا الفصل

ولقد يكثر الناس من القدح في الشعر العربي من حيث كثرة المبالغة فيهِ بحيث ان الشاعر اذا اراد المدح مثلاً وضع ممدوحهُ بمقام الملائكة والانبيآء وجعل الناس كأنهم عيالٌ عليهِ وان اناملهُ كسحائب تندى بالذهب على العافين واذا اراد التشبيب بمعشوقة افرط في وصف هيامهِ ووجدهِ وذكر ان انفاسهُ تحرق الجوّ وان عبراتهِ تغرق الاودية الى ما شاكل ذلك من المبالغات التي تقلل من قيمة الشعر لما يبدو من كذبهِ وشدة بعدهِ عن الاحتمال . وهذا وان كان لا يفسد شاعرية الشاعر من حيث اختيار اللفظ وتقدير اجزآء البيت فانهُ يفسدهُ من الجهة التي ذكرناها وهو عيب لا يُقبَل للمولدين فيهِ عذر لانهم رأوا الجاهليين ومن تلاهم لاوائل عهد الاسلام كيف كانوا ينظمون الشعر غير ذاكرين فيهِ الا الحقائق وان بالغوا لم يكادوا يخرجون عن حدود الاحتمال . وقد كان من حق المتأخرين ان يجروا على مثالهم ولكن السبب في ذلك على ما نرى هو كون الكذب قد صار لصيق التمدُّن وصنو التكسُّب وزاد في انتشارهِ رضى الممدوحين عنهُ واعجابهم بما يوصفون بهِ من المبالغات وما يُدَّعى لهم من المناقب الزورية ومن لطيف

ما يُروَى عن الامام علي ان بعضهم غالى في مدحهِ ووصفهُ بما ليس فيهِ بقصد التزلف والتملق فقال لهُ انا دون ما وصفت وفوق ما في نفسك .

ولذلك لا يكاد يُذكر الشعر العربي بالخصوص حتى يتمثل المدح لدى ذكرهِ لانهُ لولا هذا المدح لما جرت قافيةٌ ولا أُليقت للشعر دواة وذلك لانهُ كان حيلة المعوزين من علمآء القول كما كان حليـة الملوك والاكابر وكما انهُ كان مفخراً يتنافس بهِ الناظمون فقد كان زينةً يتباهى بها الممدوحون ولذلك فان كل ما يرى في مفتتح الاشعار ومختتمها وتضاعيفها من تشبيب وحكمة ووصف وتاريخ انما هو تأسيسٌ للمدح وتمهيدٌ لهُ وكان المدح هو كل المقصود من النظم (ستأتي البقية)

المؤتمر الطبي الاخير

عُقد هذا المؤتمر من عهدٍ قريب في مدينة بروكسل عاصمة البلجيك وشهدهُ جمهورٌ كبير من موفَدي الحكومات فدار البحث في مسائل كثيرة من مهمات هذا الفنّ لا متَّسَع لذكرها في هذه المجلة غير انا نقتصر منها على امرين وجدناهما حريَّين بالذكر لما فيهما من الفائدة العامّة وتنبيه القوم الى ما تجب مراعاتهُ من طرق الوقاية

الامر الاول البحث في مرض الاطفال وكثرة من يموت منهم في الطفولة الاولى الى حدٍ يفوت نسبة الحوادث الطبيعية في سائر اطوار الحياة وقد وجدوا ان اعظم الاسباب في ذلك ارضاع الاطفال من غير لبن امهاتهم بان يوكلوا الى المراضع او يُغذَوا من ألبان الحيوانات لانهُ ثبت لهم بعد

الاستقرآء المدقق لمعدّل الوفيات ان اكثر الذين يموتون في هذه السنّ هم الذين يغذون من لبن الحيوان ويليهم الذين يُرضَعون من اثدآء المراضع ثم الذين يرضعون من اثدآء امهاتهم فان معدّل الوفيات فيهم لا يتعدى المقدار الطبيعي بالقياس الى ضعف بنية الطفل وسرعة تأثرهِ بالعوارض بخلاف الفريقين الآخرين وقد ظهر لهم ان مقدار التفاوت بين فريق وآخر من اولئك الاطفال كان عظيماً جدًّا . ولذلك قرروا استحسان الخطة المعمول بها في مدينة پاريز وهي ان الامهات يذهبنَ باطفالهنَّ الى مراكز الصحة في كل اسبوع ويعرضنهم على الاطبآء فيفحصونهم ويشيرون على الامهات بما يجب صنعهُ لانهُ تبين لهم من الجري على هذه الطريقة اعظم نفع حتى ان الموت بالاسهال الذي يكثر حدوثهُ بين الاطفال قد اوشك ان ينقطع في تلك المدينة العظيمة

والامر الثاني ما علمهُ القرآء من الخلاف في انتقال عدوى السلّ البقري الى الانسان وهو ما انكرهُ الدكتور كوخ الشهير في احد المؤتمرات الطبية مما تقدم لنا ذكرهُ غير مرةٍ لأهميتهِ . وقد استمرَّ الجدال في هذه المسئلة مدة خمس ساعاتٍ يؤخذ من مجمل ما دار فيها من الاقوال ثبوت انتقال العدوى من الانسان الى الحيوان لان ذلك تحقق بالتجربة واما انتقالها من الحيوان الى الانسان فاثبتهُ بعضهم بنآء على ان جراثيم هذه العلّة فعلها واحد سوآء انتقلت من الانسان الى الحيوان ام من الحيوان الى الانسان لان مدار الامر على تأثيرها في كليهما وهو ثابتٌ قطعاً . وذكر غيرهُ ما لا يخرج عن هذا المعنى ثم قال انهُ لما لم يكن من سبيل الى امتحان تلقيح الانسان

بجراثيم هذا المرض فقد امتحن ذلك في القِرَدة بان لقّح ستة عشر قرداً بلقاح السل البقري فمات منها اربعة عشر ثم ذكر انهُ استقرى عدداً من الاطفال كانوا يُغذَون بلبن بقرٍ مسلولة فوجد ان ستة عشر منهم في المئة ماتوا بالسلّ . اهـ

قلنا وهذا القدر كافٍ في وجوب التحرُّز من لبن البقر ولحمهِ كما اشار الى ذلك كثيرٌ من اطبآء المؤتمر وان لم يكن كافياً لاثبات انتقال السل البقري الى الانسان بالبرهان الفعلي فان هذا لا مطمع في الوصول اليهِ بالذرائع الحاليّة ما لم يعرّض عددٌ كبير من الناس لخطر الموت وهو من المحال الا اذا اتّخذوا لذلك سبيلاً في المجرمين المقضيّ عليهم بالقتل مما لم نجد فيهِ لاحدٍ حديثاً الى الآن والله اعلم

المدارس المصرية

علت صيحة الجرائد الوطنية في هذه الايام بالشكوى والتنديد بنظارة المعارف لما بلغت اليهِ مدارسها من الاختلال والانحطاط حتى آل الامر الى تعطيل مدرسة المعلمين ومدرسة الهندسة لان الاولى لم يأتِها في هذه السنة احدٌ من الطلبة والثانية لم يأتِها الا طالبٌ واحد . . . وذلك بسبب ما يُعزَى الى المستر دنلوپ كاتب اسرار النظارة من الاستبداد والعنف والجور على المتعلمين الى آخر الشكوى مما ذهبت تلك الصيحة فيهِ كما ذهبت في غيرهِ

على أنّا لا نجد مساغاً للاعتراض على المستر دنلوپ فيما يأتيهِ ولا مطالبتهِ بالعدول عنهُ لانهُ مُصرَّفٌ في هذا الامر من قِبَل اربابهِ وقد اطلقوا يدهُ

فيما يشآء صنعهُ غير معارَض ولا مدافَع ولهُ اذا أُحرج ان يقول نحن لا نفعل الا كذا فمن العجيبة ان يأتينا والا فانَّا لا نكرِه احداً على دخول مدارسنا ولا نمنعهُ من دخول غيرها . وانما اللوم كل اللوم على رجال الامة في استرسالهم الى تلك المدارس بعد ما علموا من اختلال سياستها وقصور ذرائع التعليم فيها وعدم تنبههم الى تدارك مستقبل ابنآئهم قبل الفوات . فهذه عشرون سنةً أو فوقها قد مرّت على هذا القطر والعلم والتعليم فيهِ موكولان الى عهدة النظارة وهي المدّة التي شبَّ فيها صبيان القطر واكتهل شبّانهُ فليقولوا لنا اين العلمآء الذين نشأوا في هذه الديار وماذا افادت تلك المدارس في هذه السنين كلها بعد تعاقب الالوف من الطلبة عليها

على ان الامر لم يكن محتاجاً فيهِ الى الاختبار الفعلي فان المدارس المبنية على مثل الأُسُس الواهية التي بُنيت عليها هذه المدارس والموكول امرها الى اناسٍ لا يهمّهم الا مصالحهم الخاصّة دون مصلحة اهل البلاد بل المدارس التي يقول اربابها انها لم تُنشأ لاجل تعليم الامة ولكنها لا تخرج عن كونها دائرةً من دوائر الحكومة يُقصد بها ترشيح متوظفين لخدمة مصالحها الحريّة بان لا تسترسل الامة اليها الا اذا كانت تنوي ان تجعل جميع ابنآئها مستخدَمين في مصالح الحكومة أو تطرحهم على ابواب النظارات يمرّغون جباههم بتراب الذلّ والاستعطاف لينال الواحد من المئة أو من الالف وظيفةً لا تسدّ خَلّةً ولا تغني من جوع

ولقد بدا لنا امر هذه المدارس من اول سنةٍ حللنا هذا القطر ونبّهنا الامة غير مرةٍ في البيان والضيآء الى وجوب الاعتماد على انفسها في امر التعليم

ثم تكرّر مثل هذا التنبيه في اكثر الجرائد الوطنية الى ان كانت عنهُ تلك النهضة الكبيرة من اعيان القطر واغنيآئهِ في العهد الاخير وكثر المتبرعون بالاموال والاطيان لانشآء مدارس وطنية حتى جآء في بعض الجرائد ان تلك المدارس بلغت نحو عشرة آلاف مدرسة . الا انك اذا تفقدت حال هذه المدارس وجدتها لا تتعدى حدّ الكتاتيب الصغرى التي يعلَّم فيها القرآءة والخطّ وما ارتقى منها فوق ذلك فالى مماثلة مدارس النظارة والجري على طريقتها تذرعاً الى الحصول على بكلورية المعارف وما يليها من التأهل لشرف وظائف الحكومة وهو الدآء الذي تأصل في دمآء الامة واعصابها

ولسنا ننكر ان اقلّ ما في تلك المدارس اخراج الناشئين من حدّ الأُمّية الى معرفة القرآءة والكتابة وهي خطوةٌ كبيرة في مثل هذه البلاد التي لم يكن عدد القارئين من اهلها يزيد على ثلاثة في المئة الا ان هذا القدر من العلم لا يكفي لأن يرقى بالامة الى مساواة بقية الامم الحيّة . ولا تخرج عن هذا الحكم المدارس الجارية على قانون نظارة المعارف لان العلوم التي تدرَّس بمُوجَب ذلك القانون من ادناها الى الغاية التي تكفل للطالب الوقوف في موقف امتحان النظارة والتأهب لاحراز بكلوريتها لا تزيد على كونها مبادئ قاصرة لا تنير ذهناً ولا تثقف عقلاً ولا تمكّن متعلمها من العمل بشيء من تلك العلوم

ولذلك فانّا مع افراغنا جميل الثنآء على اصحاب الهمم والسخآء من رجال الامة لمَا تبرعوا بهِ من الاموال لانشآء تلك المدارس لا بدّ لنا ان ننبههم الى اصلاح طريقة التعليم فيها والعدول عن طريقة المدارس الاميرية

بحيث يستفيد الدارس منها فائدة صحيحة .ويخرج منها وفي طوقهِ ان ينتفع وينفع والا فان بقآء المدارس على حالتها الحاضرة وجلّ ما تبلغ اليهِ ان تقف بالطالب عند حدّ القدرة على خدمة الحكومة آئلٌ بشبّان الامة الى ان يقضوا ايامهم بين ابواب الحكومة وابواب الحانات وبالبلاد الى الخلوّ من رجال العمل والتهافت في دركات الخراب

واول ما يتعين على المدارس الوطنية ان تُعنَى بهِ امر اللغة لانهـا هي الجامعة الوحيدة للامة لا تقوم الا بها لان كل امةٍ انما يمثلها لسانها ثم ان تلتفت الى اتقان العلوم اللازمة للحالة المدنية وتعاطي التجارة والصناعة والزراعة مما ينهض بالامة من حضيض الجهالة والخمول ويحفظ عليها ثروتها وكنوز ارضها . ولا يخفى ان البلوغ الى هذه المنزلة ليس بالامر العسير ولا مما يلزمهُ العلوم العالية اذ لا يتعين ان يكون كل ابنآء البلاد كيماويين أو فلكيين أو اطبآء أو محامين فان هذه العلوم واشباهها انما يتقنها افرادٌ من كل امة هم خاصة رجالها ويكفي لتحصيلها مدرسةٌ واحدة كلية في العاصمة أو في احدى المدن الكبرى تكون منتجعاً لطلاب تلك العلوم

وهنا ننبه اغنيآء البلاد وذوي الغيرة الوطنية والكلمة المرعيّة من اهلها الى وجوب التضافر على انشآء مدرسةٍ من هذا النوع اسوةً بسائر البلاد المتمدنة فانك اذا تفقدت ممالك اوربا من كبراها الى صغراها لم تجد مملكة تخلو من عدة مدارس كلية بحيث يُعَدُّ فيها من هذه المدارس مايقارب تسعين مدرسةً عاملة فضلاً عما لبعضها من الفروع في المدن الصغرى . ولا جرم ان بلاداً مثل البلاد المصرية في شهرتها ومجدها وسعة غناها وما بلغت اليهِ

من مظاهر التمدن العصريّ على كونها اصبحت محط رحال العلمآء من كل صوب حريةٌ ان لا تفوتها هذه المأثرة الجليلة تعيد اليها ما كان لها من المقام العلميّ القديم وتستغني بها عن ارسال بنيها الى اوربا لتلقّي العلم في مدارسها بل لا ريب انها تكون مقصداً للطلاب من جميع اطراف البلاد العربية يؤمّونها لطلب العلوم المذكورة كما يؤمّون الازهر لطلب العلوم الدينية

نقول هذا ونحن على رجآء أن كلامنا سيقع الى اسماعٍ واعية وقلوبٍ مستيقظة والله سبحانهُ وليّ الخيرات والمسدّد الى سبل الرشاد بفضلهِ تعالى وحسن الهامهِ

المدرسة الشرقية

نشرنا في بعض اجزآء السنة الماضية رسالةً وردتنا من بعض الفضلآء في وصف هذه المدرسة وبيان الدروس التي تُلقى فيها وما حازتهُ من اقبال الطلاب عليها وايثارهم اياها لما امتازت بهِ من الموقع الصحي واستيفآء اكمل معدّات التعليم والتربية . وقد انتهت الينا في هذه الاثنآء مجموعةٌ تتضمن بيان قوانينها وترتيب دروسها واسمآء من فيها من المدرّسين وهم من الذين اشتهروا بالبراعة في جميع العلوم التي يدرّسونها وممن قضوا غابر ايامهم في مزاولة التدريس والتخريج . وقد رأينا في تعداد العلوم التي تدرّس فيها زيادةً على ما ذُكر هناك علم المنطق والحقوق والموسيقى ولا بدّ ان يزاد فيها في هذه السنة علومٌ اخر تبعاً لاقتراح الطلبة مما علمنا انها مستعدّةٌ لاجابتهِ بكل ارتياح بحيث لا تقصّر عن اشهر المدارس الكلية في البلاد

والمدرسة الآن مقسومة الى ثلاث دوائر وهي الابتدآئية والاعدادية والعلمية وفيها جمعية لمتقدمي الطلبة يلقون فيها الخطب والمباحثات العلمية والادبية ويتبعها مكتبة للمطالعة تشتمل على عددٍ كبير من الكتب النفيسة في العربية وغيرها من اللغات التي تُتلقى فيها

وقد كان تلامذتها في السنة الماضيــة وهي الخامسة من سنيها ١٦٠ تلميذاً من نواحٍ مختلفة من البلاد السورية وبعض الجهات المصرية وغيرها من مذاهب شتى مما يدلّ على حسن الثقة بها وتوفر الاقبال عليها وهو مما نؤمل ان يزداد بزيادة شهرة المدرسة وتحقق كل ما ذُكر في وصفها من الجهتين العلمية والصحية فضلاً عما بُنيت عليهِ من أُسس الفضيلة والوطنية المحضة دون تفريق بين المذاهب الدينية

فنكرر ثنآءنا على رجال الرهبانية البلدية الموقرة القائمة بهذا العمل الجليل ونخصّ حضرة رئيس المدرسة الفاضل الخوري بولس الكفوري لما يبذل من العناية والسهر واستفراغ كل ما في الوسع لتحقيق الغرض المقصود من انشآء هذه المدرسة الا وهو تربية الناشئة من اهل الوطن على قواعد الأُلفة والاتحاد وإعداد رجالٍ للمستقبل يكونون مصابيح يتألق نورها في البلاد ويبثون اشعة العلم والمدنية في كل واد وفقهُ الله الى تحقيق امانيّه بما ينيلهُ جميل الذكر في الدنيا وجزيل الاجر في المعاد

الكرم المنشاوي

قد شغلت مبرّات هذا السريّ جرائد القطر ومجلاّتهِ في هذه الاشهر

الاخيرة بما استغرق منها الفصول الطوال وما استنفدت فيهِ جُمَل الثنآء حتى لم يبقَ لبليغٍ مقال فانها ما كادت تفرغ من وصف ما تبرّع بهِ من الوقف الكبير على مدرسة محمد علي الصناعية مما ذكرناهُ في حينهِ ثم ما فاضت بهِ مكارمهُ بعد ذلك من المبرّات العديدة على بعض المدارس والجمعيات مما كان الناس منهُ كل يومٍ في حديثٍ جديد حتى فاجأها في هذه الايام بنبإٍ صغَّر عندها ما استعظمتهُ من قبل وان كان مما يتضآءل عنهُ كل عظيم . ألا وهو تبرُّعهُ بخمسة آلاف فدّان من اجود املاكهِ وقفها على وجوهٍ مختلفة من الخير وقسَّم ريعها بين المصلحة الوطنية والخدمة الدينيـة بحيث لم يدع فئةً من القائمين بهذين الامرين الا فازت منهُ بنائل واصابها نضحةٌ من ذلك الوابل وهي المبرّة التي لم يسبق اليها كريمٌ في القطر المصري ولا في غيرهِ من الاقطار الشرقية بالاجمال والمأثرة التي يحق ان تتّخذ قدوةً لـكل موسرٍ يبتغي بها وجه الله والمحمدة الخالدة على توالي الايام والليال فنكرر شكرنا لهذا المحسن العظيم ونسأل الله ان يطيل بقآءهُ ذُخراً للانسانية وعنواناً للفضل تعتزّ بهِ الاوطان وتُشَدّ بهِ عُرَى الوطنية ولا زالت الاسماع تتشنف من أنبآء كرمهِ بما يطلق الالسنة بشكرهِ والافواه تتلو من مدائح شيمهِ ما تتعطر المجالس بذكرهِ

غادة المرآة

من نظم حضرة الشاعر العصريّ نقولا افندي رزق الله

تميَّزتِ الحقيقةُ عن محالِ ... وأسفرتِ الهـداية عن ضلالِ
سطا ما كان يخـدع من طلآءٍ ... على ما كان يظهر من جمالِ

لحا الله ابيضاضاً كان يُغري بجيدكِ كل اعمى القلب خالِ
وخدّاً لم يحمّرهُ صباغٌ وعيناً لم تُسوَّد باكتحالِ
وصدراً ثاكل الثديين لولا نديف القطن والخِرَق البوالي
وحسناً كاذب الوجهين تمشي مطالعهُ على قدم الزوالِ
وساعاتٍ وقفتِ بها ملياً الى المرآة وقفةَ ذي خبالِ
فحيناً تعبسينَ لغير نُكرٍ وقد تتبسمينَ لكل حالِ
وكم قالت لكِ المرآة قولاً ظفرتِ بهِ جواباً عن سؤالِ
وكم نظراتِ صدٍّ واجتنابٍ وكم نظراتِ عطفٍ أو دلالِ
ولو كانت نظيرَكِ كلُّ انثى وكان الحسن يُجلَب باحتيالِ
لأثرى كلُّ صباغٍ وأمسى غنياً مَن يتاجر بالغوالي
أقِلّي من خضاب الشعر جهلاً فقد خدعتكِ ابصارُ الرجالِ
وقد يسودُّ أبيضُ كل شيءٍ سوى ما ابيضَّ من سود الليالي
خذي عني النصيحة واغنميها بلا ثمنٍ فانَّ النُصحَ غالِ
ولا يغرُرْكِ إطراءٌ مضلٌّ يجود بهِ كذوبٌ لا يُبالي
فقد يبدي سلوّاً وهو صبٌّ وقد يشكو غراماً وهو سالِ
أمَا لو كان ذاكِ القبحُ حسناً لما اغناكِ عن حسن الخِلالِ
وافضل ما تصبّي النفسَ خُلقٌ تحلى بالفضيلة والكمالِ
ويقبحُ ان يُذمّ قبيحُ وجهٍ اذا ما كان محمودَ الفعالِ
وأما الحبُّ فهو يقيم الا اذا دخل الفساد على الخصالِ

آثار ادبيّة

الردّ على الدهريين — انتهت الينا نسخةٌ من هذا الكتاب وهو من تأليف المرحوم السيّد جمال الدين الافغاني الشهير كتبهُ بالفارسية ونقلهُ الى العربية حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وفي شهرة مؤلفهِ ومعرّبهِ ما يغني عن بيان ما اشتمل عليهِ من سداد الاغراض وحسن التعبير. وقد تولى طبعهُ حضرة الفاضل عبد العليم افندي صالح المحامي وهي الطبعة الثالثة ولتسهيل مقتناهُ جعل ثمنهُ خمسة غروش مصرية

السودان — جريدة سياسية تجارية ادبية أخبارية زراعية لحضرات الافاضل اصحاب امتيازها الدكتور فارس افندي نمر وشركائهِ. وهي تظهر في مدينة الخرطوم مرتين في الاسبوع وقيمة اشتراكها السنوي ٦٠ غرشاً في السودان ومصر و ٨٠ غرشاً في البلاد الاجنبية. فنتمنى لها الثبات والرواج

كتاب زجر النفس — اهدى لنا حضرة الاب الفاضل الخوري فيليمون الكاتب احد رهبان دير المخلّص نسخةً من كتابٍ بهذا العنوان نسبهُ الى هرمس الحكيم وتولى تصحيحهُ وعلّق عليهِ تفسيراً لغوياً وفلسفياً. وقد قدّم بين يديهِ تمهيداً ذكر فيهِ اختلاف العلمآء في واضعهِ وزمن تأليفهِ واللغة التي أُلّف فيها ثم ذكر النُسخ التي وقف عليها منهُ وهي اثنتا عشرة نسخة من بلادٍ مختلفة كل واحدةٍ منها تباين الاخرى فجمع بينها واختار منها هذه النسخة بعد تصحيحها وهي فصيحة العبارة جزلة الاساليب يقدّر

فيما استدلّ عليهِ انها كُتبت قبل القرن العاشر للميلاد

اما موضوع الكتاب فهو كما ذُكِرَ في مستهلّهِ معاتبة النفس وزجرها عن الامور السافلة وحثها على طلب ما يلائمها ويشاكلها من الامور العُلوية . وقد ضُمّن من الحكمة الرائعة والموعظة البالغة والامثال البديعة ما هو جدير بالاقبال عليهِ وتفريغ النفس لهُ والاستبصار بمضمونه فضلاً عن الاقتباس من لفظهِ واسلوبه مما يُعدّ به كتاب بلاغة وانشآء علاوةً على كونهِ كتاب نصح وموعظة وسننقل بعض فصولهِ فيما يجيء من اجزآء هذه المجلة ان شآء الله

فنثني على حضرة ناشره اطيب الثنآء لما ابرز من هذه الذخيرة الثمينة ونحث القرآء على مقتناهُ وهو يباع في مكتبة الهلال بالقاهرة وثمن النسخة منهُ اربعة غروش مصرية

كتاب الالفاظ المترادفة — هو كتابٌ مختصر من تأليف الامام ابي الحسن عليّ بن عيسى الرماني من اهل القرن الرابع للهجرة التزم طبعهُ واعتنى بشرحهِ حضرة الاديب محمد افندي محمود الرافعي بعد ان صححهُ وضبط الفاظهُ على حضرة العلاّمة الاستاذ الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطي

والكتاب يشتمل على مئة واثنين واربعين فصلاً كلٌّ منها في جنسٍ من المعاني وقد تصفحنا بعض فصولهِ فعثرنا فيهِ على ما لا نجد بدًّا من التنبيه اليهِ وهو مما لا نظن انهُ من اصل التأليف كما لا نظن انهُ مما غفل عنهُ حضرة الاستاذ المشار اليهِ بل الذي يظهر لنا انهُ من غلط المطبعة وان الشيخ

تقف لم على نُسَخهِ الطبع

فمن ذلك قولهُ في الفصل الاول (صفحة ٨) « وصلتهُ ورفدتهُ وحبوتهُ . . ورشيتهُ » بجعل قولهِ « رشيتهُ » من اليائي مع ان المصحح يقول في الشرح « رشيتهُ من الرشوة » وما ندري كيف ذلك . والصواب رشوتهُ بالواو كما هو المتبادر من عبارتهِ المذكورة وهو المنصوص عليهِ في كتب اللغة واما رشيتهُ فلم يُنقَل لا بهذا المعنى ولا بغيرهِ

وجآء بعد ذلك « ونفلتهُ وجبرتهُ وازللتُ » وقد سقط هنا شيء من اللفظ ومقتضى العبارة « وازللتُ اليهِ » كما هو ظاهر

وفي الفصل الثاني في الصفحة نفسها تحت عنوان الفجيعة والوهن ـ وانظر ما الجامع بين هذين اللفظين ـ «عصبني واقلقني . . وبقطني واعطمني واكدّني وهدّني واصلعني . . ووَهلَني » . وفي هذه الالفاظ من التحريف والتصحيف ما لا يُهتدَى الى معرفتهِ وردّها الى نصابها الا بعد اطالة الحدس والتكهن . فان قولهُ « عصبني » ليس من الالفاظ التي تناسب المقام ولعلّ صوابهُ « اغصّني » . واغرب منهُ قولهُ « بقطني » ونظن انهُ محرَّفٌ عن «بهظني» . وكذا قولهُ «اعطمني» وهو من الالفاظ التي لا معنى لها والظاهر انهُ مصحفٌ عن « اعظمني » بالظآء المعجمة اي هالني وعَظُمَ عليَّ ومثلهُ قولهُ « اصلعني » وهو مصحفٌ عن اضلعني . وقولهُ «واكدّني ووَهلَني» صواب الاول «كدّني» بصيغة الثلاثيّ وصواب الثاني « وهلّني » بالتشديد

ومن هذا القبيل ما جآء في الفصل الثالث من قولهِ « اهانني . . وخدعني » مع قولهِ « اشجاني ودهاني ونابني ورابني ونكبني ولاعني» الى

آخر الفصل . فالاظهر ان قولهُ « اهانني » محرَّف عن « هالني » وقولهُ « خدعني » اقرب ما يُظَنّ فيهِ انهُ محرَّف عن « اجزعني » . على ان الذي يظهر لنا ان هذا الفصل انما هو تتمةٌ للفصل السابق كما يتبين من مراجعة الفصلين لا فصلٌ قائمٌ بنفسهِ تحت عنوان « الاهانة والنكبة » . . .

على ان اكثر ما تُرَى هذه الاغلاط واشباهها في اوائل الكتاب ثم تقلّ في سائرهِ وهي على كل حال مما لا يجوز ان يكون في كتاب لغة ولذلك نشير على حضرة الطابع ان يبدّل الصفحات الاول منهُ بعد تصحيحها وان يتفقد سائر اغلاط الكتاب بمؤازرة حضرة الاستاذ ويُلحِق بهِ جدولاً ينبه فيهِ على صحتها حتى يكون الآخذ عنهُ على ثقةٍ والله الموفق الى السداد

الاسئلة و بقية الآثار الادبية في الجزء التالي ان شآء الله

رُزءُ وطني

في الحادي عشر من هذا الشهر لبى دعوة ربهِ المرحوم المأسوف عليهِ جرجس افندي زكي احد الكتاب في المحكمة المختلطة بالعاصمة اخترمتهُ يد المنون وهو في إبّان الحياة ونضرة الشباب لم يتجاوز من العمر خمساً وثلاثين سنة . وكان رحمهُ الله اديباً كاتباً شاعراً حسن الديباجة رشيق النظم ومن آثارهِ مجلة علمية ادبيـة كان ينشرها باسم الفرائد ولهُ ارجوزةٌ لطيفة في تاريخ مصر سماها خلاصة الآثار في تاريخ امّ الامصار ولهُ غير ذلك مما دلّ على توقد خاطرهِ وتفننهِ في صناعة الانشآء والشعر رحمهُ الله رحمةً واسعة واجمل مثواهُ في دار النعيم

فكاهات

خُدَع الحرب [1]

اجتمع عدد من الضباط الالمانيين في حانةٍ بمدينة برلين حول أكبرهم سنًّا وجعلوا يسألونهُ أن يقص عليهم شيئاً من اخبارهِ في المواقع الحربية التي حضرها. و بعد ان الحوا عليهِ اطرق هنيهةً يتذكر ثم تبسم تبسماً لطيفاً وفتل شاربيهِ و بعد أن تناول كأساً من المشروب نظر الى سامعيهِ وكانوا كأن على رؤوسهم الطير فقال

كنت في سنة ١٨٧٠ ملازماً في الجيش الذي يقودهُ أمير سكسونيا اثنآء محاصرتنا لمدينة باريس وكان مخيَّمنا بالجهة الجنوبية الشرقية من تلك المدينة . ولم يكن علينا من الواجبات سوى الانتظار في مواقفنا الى ان تظهر نتيجة الحصار ولذلك كنا نقضي أكثر اوقاتنا في الملاهي التي يتيسر الحصول عليها لمن كان في مثل حالتنا . وكان لي في مونيخ عمةٌ تحبني محبةً شديدة وكنت اقضي عطلة عيد الميلاد كل سنة في بيتها فتذكرتني في تلك السنة وتأسفت على غيابي ولم تشأ أن تحرمني ضيافتها فأرسلت لي برميلاً من الجعة . واتفق وصولهُ في اليوم الخامس والعشرين من شهر دسمبر ففرحت بهِ فرحاً عظيماً ودعوت رصفآئي الضباط للسمر عندي ومشاركتي في فصد البرميل المذكور وشرب دمهِ . فما انقضى عمل النهار وسدل الليل حجابهُ حتى توارد نحو العشرة منهم الى خيمتي فجلسنا حول مائدةٍ عملتها من الواح اسندتها الى احجار ترفعها عن الارض وكانت كراسينا حولها من الصناديق الفارغة والاحجار والقطع الخشبية

ولو رآنا منتقد في تلك الحالة والبرميل في وسطنا لظننا فرقة من الذئاب محيطة بفريستها فكان لا يجسر الواحد منا ان يتكلم لئلا يفوتهُ الدور في تعاطي المشروب

---

(١)　بقلم نسيب افندي المشعلاني

المذكور . و بينما نحن على تلك الحالة اذا بالستارة التي كانت على باب خيمتي قد رُفعت وظهر وراءها جنديٌّ ملتفٌّ بعباءتهِ من شدة البرد فبعد أن حيّا التحية العسكرية قال اذا كان الملازم بيلو بينكم فليذهب للحال الى حضرة القائد العام لانهُ باحتياجٍ اليهِ . فلما سمعت ذكر اسمي وعلمت أن الطلب موجهٌ اليَّ شعرت بانقباض في صدري لمفارقة البرميل اولاً واصحابي ثانياً في مثل تلك الساعة التي كنت أود ان اخصصها للسرور واللهو . وكلنا يعرف الاوامر العسكرية وطريقة اتباعها فالقيت الدثار العسكري على منكبيَّ وخرجت من الخيمة بعد ان اطلقت لاصحابي الحرية واوصيتهم خيرًا بالبرميل الذي كانت تلك الدقيقة آخر عهدي بهِ

ولما بلغت حضرة القائد رفعت يدي مسلمًا وكان منحنيًا فوق مائدةٍ قد نشر عليها خريطة وفوق الخريطة ورقة صغيرة كان يبسطها براحتيهِ ويحدّق اليها ببصرهِ بتأملٍ عظيم فلم ينتبه اليَّ الا بعد بضع دقائق من دخولي عليه . فلما رآني تبسم وقال ايها الملازم بيلو لديَّ مهمة خطيرة جدًّا ولا اظنني واجدًا اليق منك لقضائها فانها تقتضي ذكاءك واقدامك . ثم اشار اليَّ بالاقتراب اليهِ واراني على الخريطة الموقع الذي نحن فيهِ وهو نوازي الكبرى ثم أشار الى موقع آخر يسمى رانسي وقال عليك ان تذهب الى هذا الموقع لايصال أوامري الى المعسكر الذي فيهِ وان تجهد بان يكون وصولك اليهِ عند الصباح . فقلت السمع والطاعة يا مولاي ثم حييت وهممت بالخروج وما كدت اصل الى باب الخيمة حتى استدعاني ثانيةً وقال تعالَ واقرأ هذه الورقة فلعلك تساعدني على فهمها . فاقتربت مستغربًا ورأيت الورقة التي كان يبسطها بيديهِ وقد كُتب عليها باللغة الفرنسوية ما يأتي

« عزيزي دريو
قد نجح الثور الاسود وأتمّ الخمسة عشر »

فجمعت افكاري وتأملت حينًا فلم افهم من تلك الرسالة شيئًا ولما رأيت القائد ينتظر مني جوابًا قلت لهُ لا أرى في هذه الرسالة يا مولاي سوى ان مزارعًا عندهُ ثور تمكن من فلاحة خمسة عشر فدانًا من الارض في مدة معلومة وانهُ من شدة

سروره يعلم ولدهُ بذلك . فتبسم القائد وقال هذا ما يظهر من منطوق اللفظ لاول وهلة ولكنني اظن غير ذلك لان هذه الورقة وُجدت ضمن زجاجة مختومة ملقاة في النهر ولا يحتمل ان مزارعاً يتخذ مثل هذه الذريعة لابلاغ خبر لا أهميـة لهُ ولكن ما لنا ولهذا فاسرع الآن في انفاذ الاوامر التي تلقيتها مني . وكأن القائد بكلامهِ هذا يأمرني بالخروج فخرجت وكان على باب الخيمة جوادٌ معدٌّ فامتطيتهُ وجعلت أحثهُ لاخترق ذلك الليل الكثيف وابلّغ رسالتي قبل بزوغ الصباح

وما سرت كثيرًا حتى عادت الي مخيلتي تلك الرسالة التي قرأتها وتحققت ان الامر اهم مما خطر لي لاول وهلة ولا سيما وقد تذكرت ما سمعتهُ من ان الحامية الفرنسوية خارج باريس كانت تراسل سكان العاصمة يوميًّا بالرغم عن جميع الوسائط المستعملة لمنع ذلك . وعليهِ جعلت اقدح زناد الفكرة لعلي اهتدي الى المقصود من تلك الرسالة على امل ان اتخذ بذلك يدًا عند قائدي وكانت شدة الفكر قد بلغت مني حتى اعملت في خاصرة جوادي المهماز فكان يعدو بي باسرع من البرق ولم انتبه الى وجوب التيقظ والتمهل ولا سيما واننا كنا قد علمنا بوجود عصابات من الفرنسويين تجول في تلك الطرق بين المعسكر والمعسكر . وما زلت أجد السير حتى أجفلت بغتةً لدى سماعي صوتاً جهوريًّا يصيح بي قف وقل من انت . وقبل أن املك روعي رأيت نفسي محاطاً بأربعة اشباح وقد صوَّبت بنادقهم الى صدري فأيقنت انني هالكٌ لا محالة وعلمت انهُ لا يخلصني من اعدآئي الا مفاجأتهم على غير انتظار منهم كما فعلوا بي. فصممت فكري في الحال و بينما هم ينتظرون مني جواباً أخرجت بسرعة عظيمة غدارةً باليد الواحدة اطلقتها للحال على الشبح الذي عن يميني وامتشقت بالاخرى حسامي وضربت بهِ اقربهم اليَّ فسقط الاثنان الى الارض . واطلق عليَّ الاثنان الباقيان النار فذهبت رصاصة احدهم في الفضـآء وكانت الثانية موجهة الى صدري فتلقاها عني رأس جوادي وللحـال ارتجف بشدة وسقط الى الارض ميتاً . اما انا فوثبت عنهُ اسرع من لمح البصر وتقدمت الى الثالث ولم امهلهُ ريثما وضع يدهُ على قبضة سيفهِ حتى ضربتهُ في صدرهِ فهوى ايضاً الى الارض .

ولما رأى الرابع ما كان اطلق لجواده العنان فلم اعلم هل ذهب لينجو بحياتهِ او ليستدعي نجدةً تجهز عليَّ غير اني تحققت خطر موقفي ولم يهمني سوى التخلص من تلك الورطة فاخذت جواد احد القتلى وعلوت ظهرهُ وانا اخزهُ بحد حسامي ليجدَّ في عدوهِ

واضطرتني الحال ان اغير طريقي فدرت الى اليمين وعبرت مونفرمايل تاركاً اياها عن يساري وتقدمت بمنتهى الحذر وكلي آذانٌ تصغي الى اقل حركة وعيونٌ تخترق ظلمآء الليل. وكان الثلج يخفي صوت حوافر الجواد فبقيت سائرًا بأمان الى ان لمحت عن بعدٍ نورًا ضعيفاً رجحتُ انهُ من بلدة رانسي حيث تعسكر جنودنا فكنت اقترب منهُ باحتراسٍ حذرَ ان اكون مخطئاً وما صدقت ان سمعت الحرس يناديني باللغة الالمانية فطفح قلبي سرورًا واجبتهُ للحال انني قادم برسالة الى قائد الحملة في رانسي فاخذني اليهِ . ولما مثلتُ بحضرة القائد و بلغتهُ الاوامر شكرني بلطف ثم سألني عن موعد قيامي من نوازي الكبرى ولما اخبرتهُ اظهر مزيد التعجب والاستغراب لوصولي اليهِ سالمًا مع وجود العصابات الفرنسوية بكثرة متفرقةً في تلك النواحي . وعرض عليَّ الطعام والراحة فابيت قائلاً ان الاوامر التي تلقيتها تقضي عليَّ بسرعة الرجوع . قال اذًا لا بد من ارسال نفر لحراستك وألحَّ عليَّ باستصحاب اربعة من الجنود الاشدآء فاستأذنت ورجعت بحاميتي الصغيرة قاصدًا نوازي

وبعد ان قطعنا مسافةً في ذلك البرّ وقعت عيني عن بعدٍ على قصرٍ فخيم تحيط بهِ حديقة واسعة الارجآء وينبعث من بعض نوافذهِ نورٌ ضعيف .فتعجبت جدًا لا لوجود القصر فانهُ يكثر وجود امثالهِ حول باريس من مساكن سراتها ولكنني استغربت وجود النور فيهِ لان جميع اصحاب تلك المنازل كانوا قد اخلوها وقت الحرب لان البقآء فيها لا يكون على امان . وحدثتني نفسي ان استطلع داخل القصر واعرف ساكنيهِ فامرت الجنود ان يسيروا معي اليهِ وقال لي احدهم ان القصر يختص باسرة فلتانيز. ولما بلغنا الحديقة ارسلت جنديًا يطوف حول القصر ليرى هل لهُ بابٌ آخر غير الذي نحن امامهُ وابقيت آخر عند باب الحديقة وتقدمت بالاثنين الباقيين الى باب القصر. ولم نكد نبلغهُ حتى فتح الباب وظهر منهُ

فتاةٌ لم تقع عيني على احسن منها جسماً ولا اتمّ جمالاً وقد القت على كتفيها دثارًا عسكريًّا يلبسهُ ضباط الفرنسيس في ايام البرد . وكان في يدها مصباح فلما بلغت خارج الباب رفعت المصباح ثلاثًا الى فوق رأسها وكنت في كل مرة يقع نورهُ على وجهها اشعر ان الارض تتزلزل تحت قدميَّ لدى مشاهدة ذلك الجمال الرائع والقد البديع . فهمست الى الجنود ان ينتظروني وتقدمت الى الفتاة وكانت كأنها تنتظر قادمًا في تلك الساعة ولكنها ما رأت هيئتي حين اقتربت واستبانت اني ضابط الماني حتى ارتعش جسمها وبانت على وجهها علامات القلق والخوف . فقلت لها ليس انا الذي كنتِ تنتظرينهُ ايتها الفتاة . قالت لا ولا سواك لكنني سمعت وقع حوافر جواد في سكون الليل فخيّل لي ان احدًا تاه عن طريقهِ في هذه الثلوج المتراكمة فأتيت لعلي انفعهُ بشيء . قلت ولمَ ارتعش جسمكِ عند مشاهدتي . قالت لا سبب لذلك غير البرد الشديد . فتبسمت وقلت اذًا لم يكن رفعكِ المصباح ثلاثًا علامةً للرسول الذي تنتظرينهُ من باريس . ولما قلت ذلك خطر لي انني ادركت سرّ الرسالة المعهودة وفزت بغايتي فارسلت اليها نظرًا حادًّا جدًّا ولكنهُ لم يبن عليها اقل تأثر وقالت لا افهم ما تقصد بالرسول والرسائل يا مولاي فليس بيننا وبين باريس مراسلات البتة . قلت ولماذا انتم باقون في هذا القصر والخطر محدق بكم وقد هاجرت الجيرة باسرها . قالت لم نتمكن من الهرب بسبب مرض والدتي فانها غير قادرة على المسير ولا واسطة لدينا لنقلها . قلت اذًا تسمحين لي ان ادخل البيت واقدم لها احتراماتي . وادركت الفتاة انني اقصد تفتيش البيت وان اتحقق بنفسي صدق كلامها فتوقفت هنيهةً عن الجواب ثم قالت اذا كان لا بدَّ لك من الدخول فتفضل ثم سارت امامي وتبعتها بعد ان اقمت جنديًّا على الباب وامرتهُ ان يتبعني اذا سمع اقل حركة ينكرها

وصعدت الفتاة سلمًا فتبعتها فيهِ حتى بلغنا فسحة من حولها غرف القصر وتخيل لي سماع حركةٍ في احداها فقصدتها وكانت الفتاة قلقة جدًّا فامرتها ان تفتح ذلك الباب امامي . وقرأت في وجهي الاصرار ففتحت الباب بيدٍ مرتجفة ولما دخلتُ

وجدت والدة الفتاة وهي حقيقةً مقعدة وقد أجلست على كرسيٍّ كبير امام سرير ملقى عليهِ ضابط فرنسوي و بين الاثنين رقعة شطرنج يلعبان عليها . فما وقع نظر الام عليَّ حتى اعترتها رجفة الوجل وكانت قد رفعت يدها لتنقل بيدقًا فلم تعد تتمكن من ردها . اما الضابط فحاول القيام ولكنهُ لم يتمكن بعد الجهد الا من الاستناد على ذراعهِ . وتقدمت الفتاة فقالت هذه والدتي التي اخبرتك عنها وهذا الضابط صديقٌ لنا كسرت رجلهُ في المعركة الاخيرة واسرهُ الالمان ولكنهم اجازوا لهُ المجيء الينا لتمريضهِ بعد اخذ العهد الوثيق عليهِ ان يعود اليهم متى تعافى . وكانت عينايَ تبحثان في تلك الغرفة ومن فيها فلم أرَ ما يدعو الى الشبهة . وفهمت الفتاة قصدي فقالت دونك يا حضرة الملازم هذه المفاتيح فسر في جميع غرف القصر وابحث كما تشآء . فاعجبني تساهلها هذا ولكنني خشيت ان يكون في الغرفة التي نحن فيها اوراقٌ يغتنمون فرصة غيابي فيلقونها في الموقد الذي كانت نيرانهُ تستعر بشدة لمقاومة البرد القارس . فناديت الجندي وامرتهُ بالبقآء في الغرفة ومراقبة كل شيء ثم طلبت من الفتاة ان تسير واياي لتفقد غرف القصر . وجعلنا نزور غرفةً بعد الاخرى وانا لا اجد ما يقوّي ظني الى ان بلغنا غرفة الفتاة الخاصة فكانت كغيرها . و بينما انا خارجٌ منها خطر لي ان افتح خزانة الى جانب السرير فلما تقدمت اليها وثبت الفتاة بيني و بين الخزانة وقالت بربك لا تفتح هذه الخزانة وتيقن انهُ ليس فيها ما تطلب . فلم يكن كلامها الا ليزيد رغبتي في فتح الخزانة وقلت لها لا بد من ذلك . ولما لم تجدِ توسلاتها نفعًا اسرعت ففتحت الخزانة واخذت منها صندوقًا صغيرًا من خشب الابنوس وهجمت بهِ الى باب الغرفة تقصد الخروج فتبعتها للحال وكانت هي تعدو كالنعام الجافل وانا اجدُّ في اثرها الى ان بلغت الغرفة التي فيها والدتها والضابط وكان الجندي في طريقها فسهل عليَّ ادراكها فامسكتها بشدة وامرتها ان تسلمني الصندوق . وكانت تتوسل اليَّ بمنتهى الرقة وتؤكد لي ان ليس في الصندوق ما يهمني وانهُ يحتوي على اشيآء تختص بها وتنقص من كرامتها اذا نُظرت . ولما رأت ان توسلاتها لم تغنِ عنها شيئًا ولا غيرت من اصراري جمعت ما بقي لها من القوة

وجذبت نفسها من بين يديَّ ثم القت بالصندوق الى الموقد . اما انا فكان قد بلغ التهيج مني حتى لم تقف النيران في سبيل حصولي على غايتي فوثبت الى جانب الموقد وانتشلت الصندوق بسرعة شديدة قبل ان يؤثر فيهِ اللهيب . واذ ذاك تقدمت الفتاة اليَّ وهي قد تغيرت من ذئبٍ ضارٍ الى حمل وديع ونزعت من عنقها سلسلة فيها مفتاح صغير فدفعتهُ اليَّ قائلة اذا كان لا بد من اطلاعك على محتويات هذا الصندوق فخذ افتحهُ ولا تكسرهُ . فاخذت المفتاح مستغربًا هذا الانقلاب السريع وفتحت الصندوق فسترت الفتاة عينيها بيديها بعد ان القت الى الضابط الفرنسوي الجريح نظرًا غريبًا لم ادرك معناهُ . وزاد سروري عند ما رأيت في الصندوق اوراقًا ورسائل وتحققت انني قد قبضت على مفتاح يسهّل عليَّ فهم الرسالة التي بيد قائدي فاخذت الاوراق وجعلت اقرأها بتأمل فوجدتها رسائل باسم الفتاة صوفيا فلتانيز و بتوقيع ارمان ديبون وكلها بسيطة العبارة والمضمون يقول في بعضها انهُ قبل الدعوة وسيأتي ليقضي يومًا عندهم . وفي غيرها يعتذر عن غيابهِ لاشغال ضرورية وانهُ يرجو ان يتمكن من زيارتهم قريبًا الى ما اشبه ذلك من المكاتبات التي تتبادل بين المعارف والاصحاب . ولما انهيت تلاوتها نظرت حولي فوجدت الضابط قد احمرَّ وجههُ وتحلب العرق من جبينهِ ولكنهُ لم يفه ببنت شفة . اما الفتاة فنهضت وقد بان لمعان وجهها و بريق عينيها وقالت يا حضرة الملازم قد توسلت اليك ان لا تفشي سري فخيبت رجآئي واذ قد قضي الامر فلا بأس من ان ابوح لك بجميعهِ . فاعلم ان كاتب هذه الرسائل هو نفس هذا الضابط المطروح امامك الآن وقد عرفناهُ منذ كنت واياهُ صغيرين وكان تجاوُر اسرتينا سببًا لتمكن الوداد بيننا وكثيرًا ما كنا ندعوهُ ليأتي ويقضي عندنا اياماً . اما انا فقد احببتهُ محبة شديدة ولما كنت لا اجسر على ان ابوح بحبهِ كنت التقط رسائلهُ هذه واحفظها عندي كاثمن كنز فاذا خلوت بها احادثها واقبلها واشكو اليها هيامي كأنها هي نفس حبيبي . ولم يعلم ارمان بما اقاسي ولا اظنهُ يهتم بي فلذلك توسلت اليك بالحاح ان لا تظهر هذه الرسائل امامهُ مخافة ان يعرف القصد من حفظها ويستهزئ بي . وما كادت تتم

كلاهما حتى شهق الضابط وصاح بمنتهى الرقة آه يا صوفيا انني اشكر الله على ما حدث فقد اراني ما كنت اهب نصف حياتي لمعرفته فانني من اول يوم رأيتكِ قد احببتك ولم اجسر ان ابوح بحبي خوفاً من ان أُصدّ فآه لمَ لم تظهري لي ذلك من قبل . ثم اعمل جهدهُ و بذل قواهُ حتى اخذ يدها فأدناها الى فمهِ ورسم عليها قبلة في غاية الحب والوداد

ولما رأيت انقلاب المقام الذي نحن فيهِ الى موقف غرام ايقنت ان صفقتي خاسرة وليس في القصر ما يختص بالرسائل السرية ولا بمراسلات باريس فتركت الفتاة بين ذراعي حبيبها وحراسة والدتها وخرجت من القصر مع الجنود وتابعنا مسيرنا عائدين الى نوازي الكبرى

. . . .

ولما كانت سنة ١٨٧٦ اي بعد تلك الحادثة بست سنوات جئت باريس ونزلت في بعض فنادقها وعند تناول الطعام وجدت بجانبي سيدة عليها مظاهر الابهة والجمال فنظرت اليها وعرفتها للحال انها هي صوفيا دي فلتانيز وعرفتني هي ايضاً فحييتها ودخلنا عباب الحديث فذكرتها وذكرتني بتلك الليلة ثم سألتها هل اقترنت بعد ذلك بحبيبها ارمان . فتبسمت وقالت لا لانهُ كان زوجي قبل تلك الليلة . فشعرت بسهم اخترق صدري وقلت ولماذا اذاً قلتِ انكِ تحبينهُ ولا تجسرين على الاعتراف لهُ بحبكِ . قالت اتكون من رجال الحرب ولا تعرف خدَع الحرب فان ما فعلتهُ لم يكن الا لتعمية الحقيقة عليك لان تلك الرسائل في الصندوق الصغير لم تكن الا الغازاً متفقاً عليها كنا نخاطب بها باريس سرّاً ولو لم افعل ما فعلت لانكشف لك الامر وجرّ علينا الويل والشقآء . فعضضت شفتي حتى ادميتها غيظاً واسفاً على الفرصة التي مرت من يدي وتعوذت بالله من دهآء تلك الفتاة ومهارتها .